

مركز دراسات الوحدة العربية

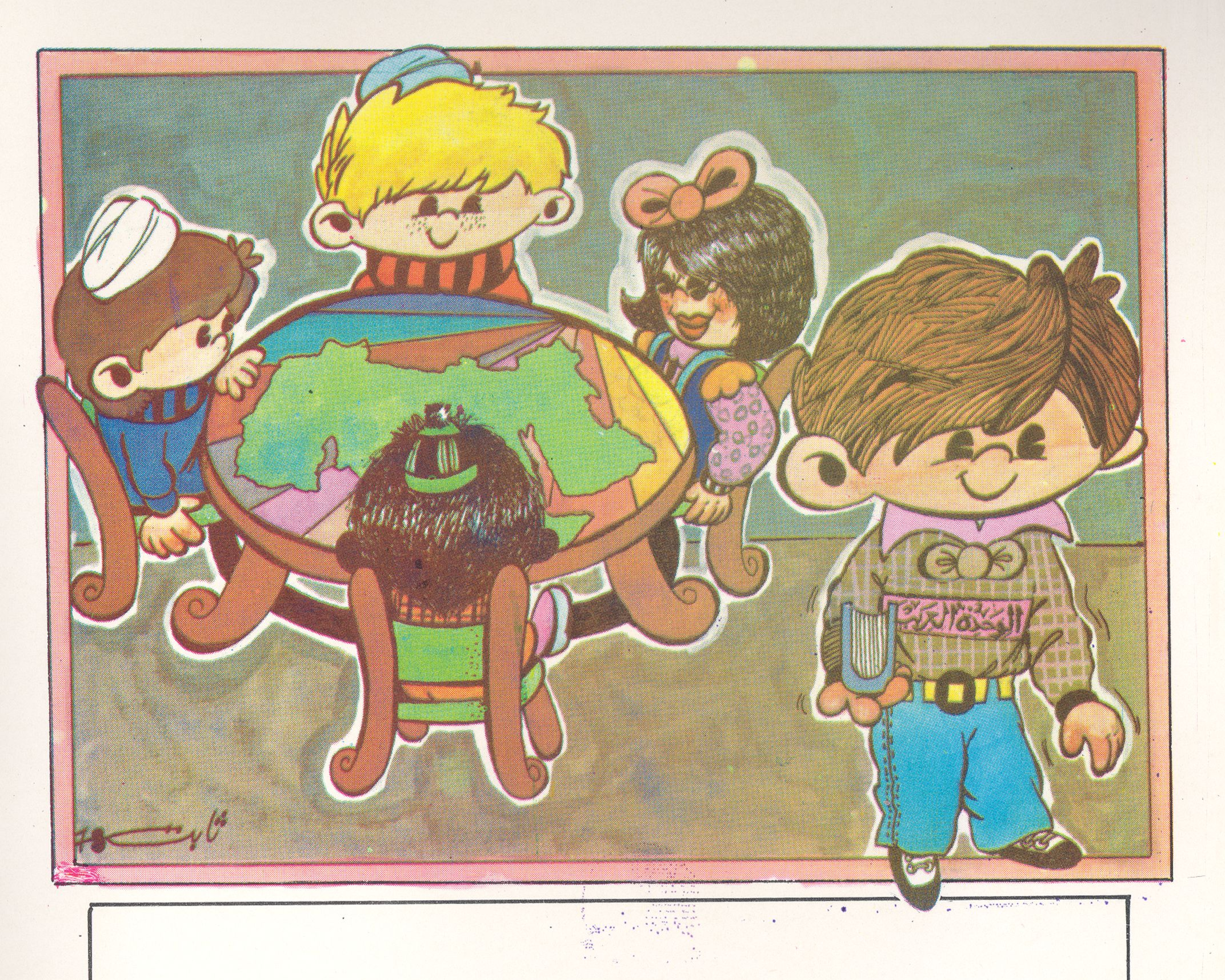
ربوع بلادي



سلسلة كتب مصورة

لتعريف الناشئة العرب بمدن وطنهم الكبير

القاهرة



اتفقَ نـزار مَعَ رفـاقِهِ تـلاميذِ مَـدرسَةِ الـوحـدةِ العَـربيَـةِ عَلى أن يجمَعـوا مَعلومـاتٍ جغرافيَّةً وَصوراً عَنْ مُدُنِ وَطِننا العَربي ليَطبَعوهَا في كتابٍ كبيرٍ اسمُهُ :

«أطلس ربوع بلادي»

فنشروا إعلاناً في الصُّحُفِ يَطلبونَ فيهِ مُساعدةَ اخوانِهم الأطفالِ بأنْ يُرسِلَ كلٌّ منهم معلوماتٍ وصُوَراً عن مدينتِهِ. . .

فوصَلتهم رَسائلُ كثيرةٌ . هذهِ الرسَالةُ هي الثالثة التي رأى نزارٌ ورفاقُهُ أنها تستحقُ بأن تُنشَر وحدهَا في هَذا الكتاب. . ؟

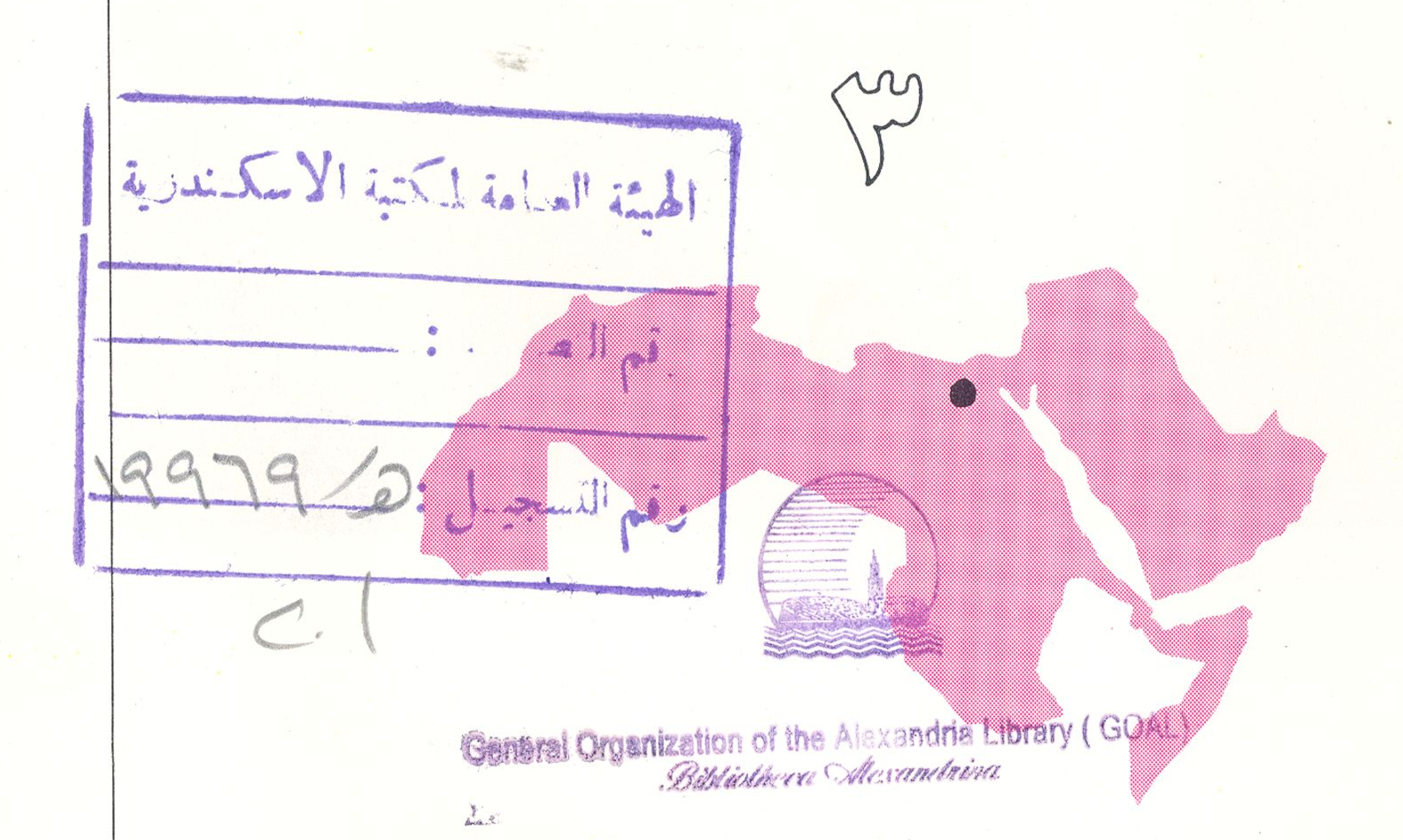


مركز دراسات الوحدة العربية

ربوع بلادي

سلسلة كتب مصورة لتعريف الناشئة العرب بمدن وطنهم الكبير

٣



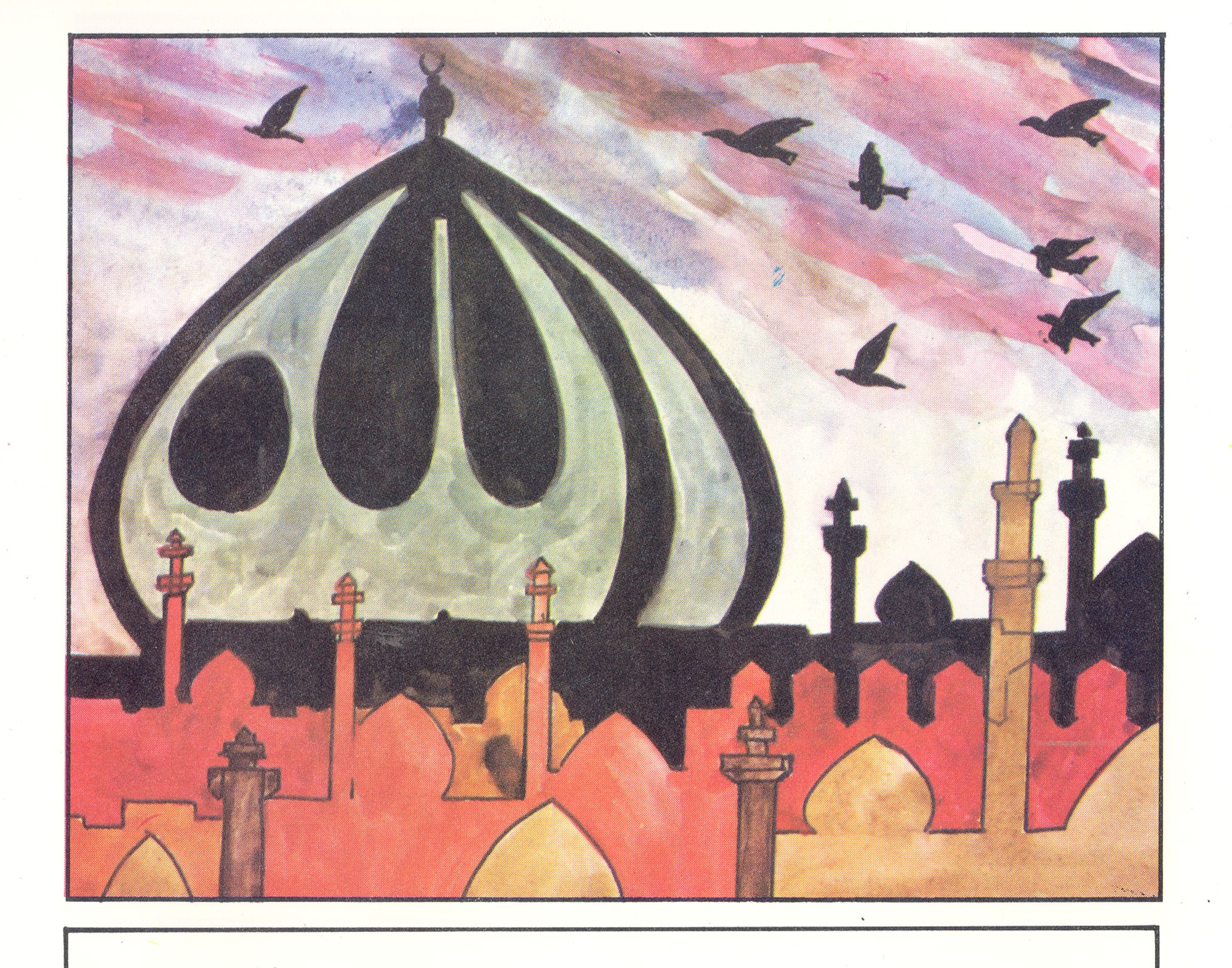
القاهرة

شريف الرّاس



أنا صديقَتُكُمْ حُسْنِيَّة من القاهرة. أُحَدِّثكم عن بيتِنا أولاً. بَيتُنا يُشبهُ زورقاً كبيراً علىٰ ضفة نهرِ النيل وَهوَ مُثبَّتٌ بأرضِ الشاطىء بحبالٍ متينةٍ حتىٰ يَظَلَّ في مَكانهِ فلا يَجرِفُهُ التيّار.

جُدرانُ بيتِنا هذا، والسقفُ، والشُرُفاتُ كلُّها من الخشب. ولأنَّه يظلُ عائماً فوقَ الماءِ صارَ اسمُهُ (عوّامَهْ). وَلكنّ العوّاماتِ قليلةٌ عندنا في القاهرة. فالمدينة ذاتُها مبنيةٌ بالحَجَرِ والاسمنت والطابوق. وَعندما أجلِسُ في شُرْفَةِ العَوّامَةِ مَساءً، وأتأمّلُ منظرَ غُروبِ الشمسِ فوقَ النيل، وأرىٰ من بعيدٍ بيوتَ القاهرةِ التي تُحيطُ بها الحدائقُ الخضراء، وأرىٰ مآذِنَ المساجدِ الكثيرةِ، والعمارات السكنيّة العالية، أسائلُ نفسي: هل يُمكن أن توجَدَ في الدنيا مدينةٌ أجملُ من القاهرة؟



يقولونَ في وَصفِ مَدينتِنا «إنها المدينةُ ذاتُ الألفِ مِئْذَنَة». قد تتساءلون باستغراب: «مَدينةٌ واحدَةٌ فيها ألفُ مَسجد؟». لكن استغرابكم هذا سيزولُ عندما تعلمونَ أنه يسكُنُ القاهرةَ ثمانيةُ ملايين مواطنٍ عربي. فالقاهرةُ مدينةٌ كبيرةٌ وواسعةٌ جداً ومُزْدَحِمَةٌ بالسكّانِ كثيراً. وهي عاصمةُ القطرِ المصري، وهي أكبرُ مدينةٍ في القارّةِ الإفريقية، وهي أيضاً أكبرُ مُدُنِ وَطننا العربي.

عَرَضَ أخي أحمد خريطةً جغرافيةً كبيرةً أمامي وَقال لي: انظُري إلى مكانِ القاهرةِ يا حُسْنِيّة، ألا يُشبهُ مَوْقِعُها مَوْقِعَ القَلْبِ من وطنِنا العربي؟

قلت: نَعَمْ. القاهرةُ هي في موقعِ القَلبِ من وَطنِنا العربي الكبير.



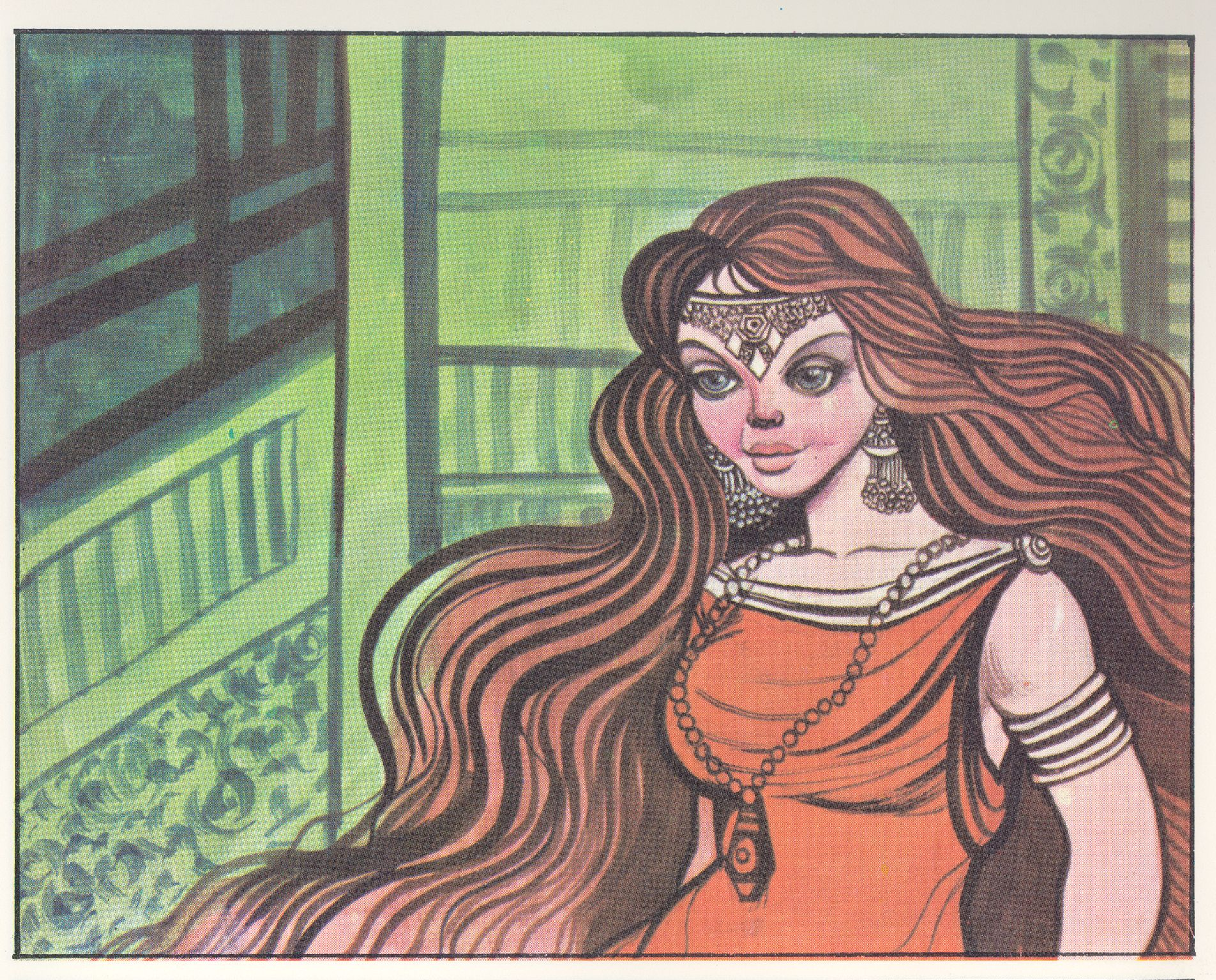
وَعندَنا في القاهرةِ أوّلُ مسجدٍ بَناهُ أجدادُنا العربُ في القارَّةِ الإفريقية. إنه مسجدُ عَمْرو بنِ العاص قائِدُ جيشِ الفتحِ العربي الذي تَوَجَّهَ إلى شمال أفريقيا في عَهْدِ الخليفةِ الراشدِ عُمَرَ بنِ الخطّابِ «رضي الله عنه». ومسجدُ عَمْرو بن العاص لا يزالُ موجوداً في منطقةٍ اسمُها الفسطاط. وبالقُرْبِ من الفسطاط اختارَ الفاطميونَ موقعَ مدينةِ القاهرةِ عندما أسَّسَها قائدُ جيشِهم جَوْهَرُ الصقليّ قبلَ حوالى ألفِ سنة.

والفاطميّونَ، وهم قومٌ عربٌ، كانوا أولَ من سَكَنَ القاهرةَ عندما انتقلوا إليها قادمينَ من تونس قبل ألفِ سنة. وهذا شيءٌ طبيعيٌ بالنسبةِ للإنسانِ العربي الذي مِنْ حَقِّهِ أن يعيشَ في أي بُقعةٍ يختارُها من وَطنِهِ الواحدِ الكبير.



بَعد أن أسَّسَ الفاطميونَ القاهرةَ اتَّسَعَت هذه المدينةُ العربيةُ وَنَمت كثيراً، حتىٰ أصبحتْ في عهدِ البطلِ صلاحِ الدينِ الأيوبي العاصمةَ الفعليةَ لمصر والشام والعراق. ومنها انطلقَ البطلُ صلاحُ الدين إلىٰ فلسطين، التي كانت محتلةً من قِبَلِ مُلوكِ أوروبا آنذاك، فهزَمَهُم وَحَطَّمَ جيوشَهم في مَعركةِ حِطّين سنة ١١٧٨ م، ثم حرَّرَ مدينةَ القدس بعدَ سبعينَ سنةٍ من استعمارِهم لها.. وبعدَ صلاحِ الدين بحوالى خمسينَ سنة انطلقَ من القاهرةِ جيشٌ عربيٌ بقيادةِ البطلِ الشعبي الظاهر بيبرس، متوجهاً إلىٰ فلسطين أيضاً، فَتَصَدّىٰ للغُزاةِ المغولِ الذين كانوا قد أَنزلوا النَكَباتِ ببغداد ودمشقَ، وكَسَرَ جيشَهم وشَتَّتَ شَمْلَهم..

ولا تزالُ قلعةُ صلاحِ الدين الأيوبي من أجملِ المباني الأثرية العربيّةِ التي تزدانُ بها القاهرةُ اليوم.



وَعندَنا في القاهرةِ نَشَأتْ الملكةُ العَربيةُ الباسلةُ شَجَرَةُ الدُّرِّ التي حَكَمت البلادَ بذكاءٍ ومَهارةٍ خِلالَ فَترةٍ عصيبةٍ جداً.

فقد تُوُفّي زوجُها عندما كانت مصرُ مُعَرَّضَةً للاحتلالِ من قِبَل قُواتِ غزوٍ أوروبيّة، يزيدُ عَدَدُها عن مائةِ ألفِ مُقاتِلٍ بقيادةِ مَلِكِ فرنسا لويس التاسع. ولكنَّ شَجَرَةَ الدُّرِّ أَخْفَت نَبأَ وفاةِ زوجِها، لِتُحافِظَ على مَعْنويّاتِ الجيشِ والشعب، وراحَت تُصْدِرُ الأوامِرَ والتوجيهات باسمه. وهيَ توجيهاتٌ تَحُضُّ على الجهادِ وتَسْتَنْفِرُ الهِمَمَ للقتالِ دفاعاً عن الوَطن. فَهَبَّ شعبُنا في مِصْرَ للتصدّي للغُزاةِ، وكَسَرَهُمْ وحَطَّمَ جيشَهم، وأَسَرَ الفلاحونَ المصريون قائدَ الغُزاةِ الملكَ لويس التاسع.

وهكذا كانَ لِحِكْمَةِ شَجَرَةِ الدُّرِّ وذكائِها دورٌ هامٌّ في تحقيقِ ذلك الانتصار العظيم.



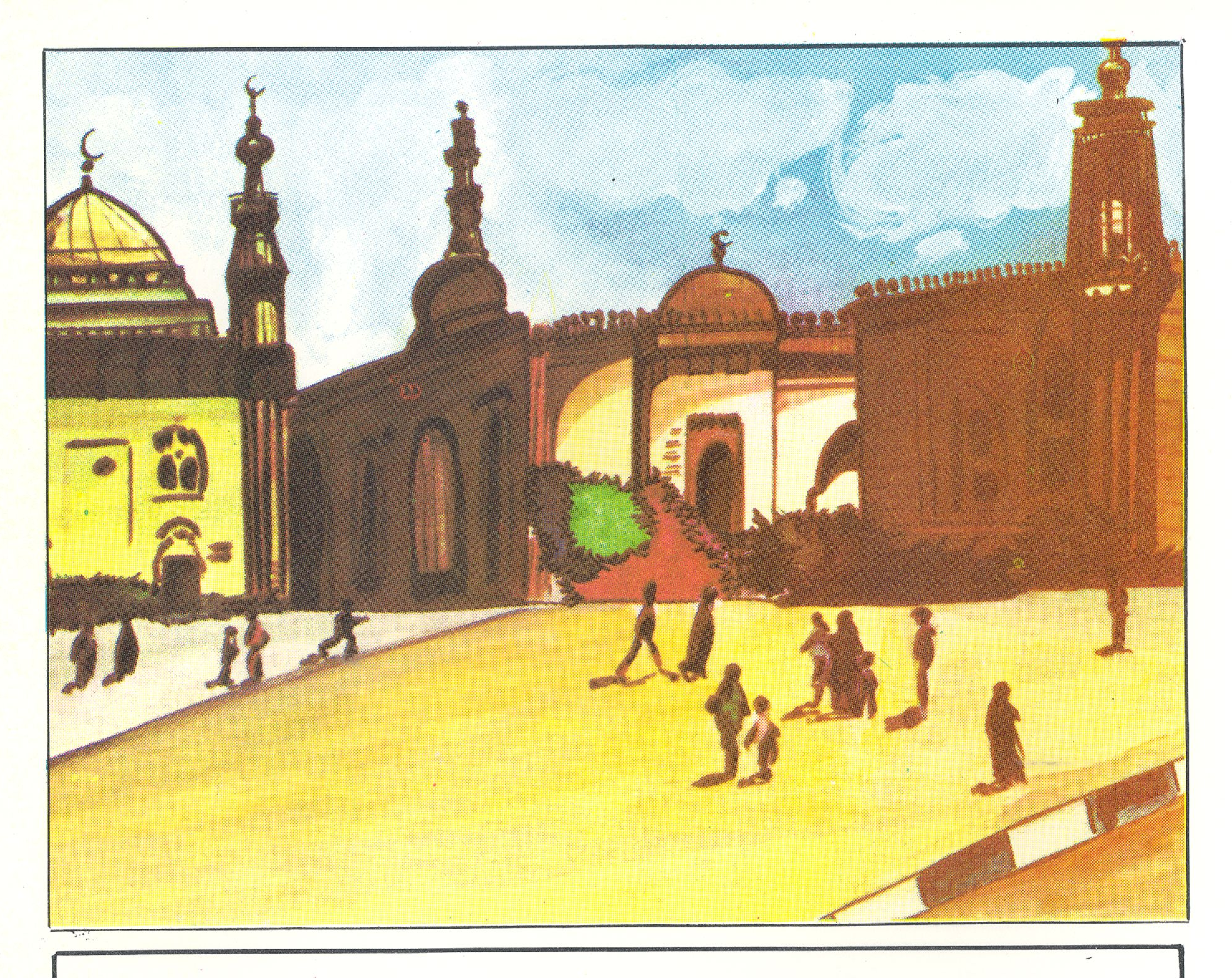
الشتاءُ عِندَنا في القاهرةِ لطيفُ مُعْتَدِلُ المناخ، دافىءُ أحياناً. والأمطارُ قليلة.. أمّا في الصيفِ فإنَّ المناخَ يُصْبحُ حارّاً. ولكنَّ المنتزهاتِ الجميلةَ على شاطىء نهرِ النّيلِ، والحدائقَ العامَّةَ الواسعَةَ الظليلَةَ، والشوارعَ المُشجَّرَةَ، والأراضي الزراعية الخضراء، كلُّ ذلكَ يجعلُ الحياةَ في القاهرةِ حُلْوَةً ومُمْتِعَةً ولطيفة.. كما أنَّ الناسَ قد يهربون من الحَرِّ إلى المسابح المنعشة، وقد يذهبون بالزوارقِ في رَحلاتٍ نهريّةٍ لا أَبْدَعَ منها ولا ألطف. وتنتهي الرِّحْلَةُ النّهريَّةُ عادَةً في مُنتزهٍ كبيرٍ مشهورٍ مثلِ مُنْتزهِ القناطرِ الخيريّةِ الذي يعرفه أكثرُ الأطفالِ العربِ لكثرةِ ما يشاهدون مناظِرَهُ في الأفلامِ السينمائية..

أما المنتزهاتُ الجميلةُ داخِلَ القاهرة فهي كثيرةٌ، وَرُبَّما كان أشهَرَها بالنسبةِ للأطفال حديقةُ الحيواناتِ التي تُعَدُّ من أقدمِ وأكبرِ مثيلاتِها في وطننا العربي.



إذا رَكِبْتَ زَوْرَقاً في نُزْهَةٍ نَهْرِيَّةٍ في النيلِ فإنَّكَ تُلاحِظُ السُّفُنَ النَّهرِيَّةَ الكثيرةَ التي تَعْبُرُ النيلَ ناقِلَةً البضائعَ والناسَ إلىٰ الشمالِ والجنوب. فنهرُ النيلِ شِرْيانُ مُواصلاتٍ مِلاحِيَّةٍ مُنْذُ القديم، لأنَّهُ نهرٌ عريضٌ وعميق. وهذِهِ السُّفُنُ المِلاحِيَّةُ بعضُها عَصْرِيٌّ حديثٌ يَعْمَلُ بالمُحَرِّكِ، وبعضُها يَسيرُ بقوةِ دَفْعِ الرِّياحِ في الشِّراعِ الأبيضِ العالي الذي يَرْسِمُ علىٰ صَفْحَةِ النهر ظلّاً جميلاً..

وَزَورقُكَ، مع هذه السُّفُنِ الشراعيةِ، يَعْبُرُ تحتَ الجسورِ العديدةِ التي تَصِلُ ما بينَ جانِبَي القاهرة. وهيَ جميعاً جُسورٌ ضخمةٌ عظيمة لا تتوقف الحركةُ فوقَها ولا تهدأ، وبعضُها جُسورٌ قديمة، وبعضُها جسورٌ حديثة، لكنَّها جميعاً تُحَفٌ مُدْهشةٌ في فَنِّ الهندسة.



وعندَنا في القاهرةِ الجامعُ الأزهر.. سَألْتُ أبي: «هل نستطيعُ أن نَقولَ إنَّ الجامعَ الأزهرَ هو أقدمُ جامعةٍ علميةٍ في وطننا العربي؟» قال أبي: .. لا يا حُسْنِيَّة.. جامعُ القُرَوِيّينَ في مدينةِ فاس بالمغْرب هو أقدمُ جامعةٍ علميةٍ لا في وطنِنا العَرَبيِّ فَحَسْبُ بَلْ في العالمِ كُلِّه.. لكنَّ الجامعَ الأزهرَ في القاهرة أوسعُ وأكبرُ وأهمُّ. فمنذُ حوالى ألفِ سنةٍ وحتى يومِنا هذا حافَظَ الأزهرُ على كونِهِ صَرْحاً أساسياً من صُرُوحِ ثقافتِنا العربية الإسلامية. وَكانَ الأزهَرُ ولا يزالُ مَقْصِدَ طُلّابِ العِلْمِ والمعرفةِ الذينَ يأتونَ إليهِ من مُخْتَلَفِ أنحاء وطنِنا العربي الكبير، ومن البلدان الإسلامية الأخرى..

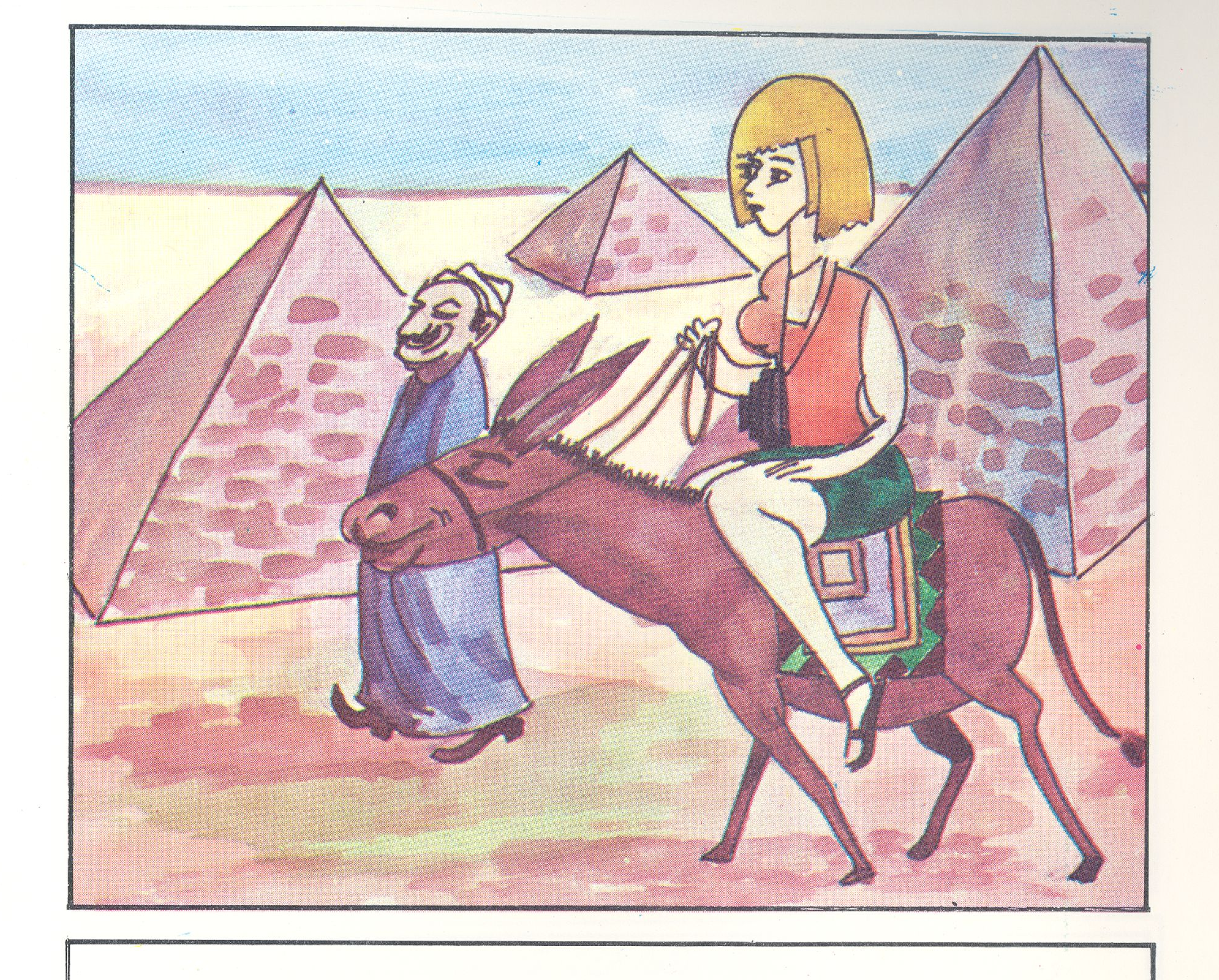
وإذا كانت اللغةُ العربيةُ عُنْصُراً أساسياً في وَحْدَتِنا القومية، فإنَّ للأزهرِ دَوْراً هامّاً في حمايةِ لُغَتِنا الفُصْحى والمحافَظَة عليها.



وَعندَنا في القاهرةِ مَحطَّةٌ للقِطارات، قد تكونُ أكبرَ محطةِ قِطاراتٍ في وطنِنا العربي، وقد تكونُ أشهرَ محطةٍ أيضاً، لأنَّ أهلنا العرَبَ يُشاهدونَها كثيراً في الأفلامِ المصرية.

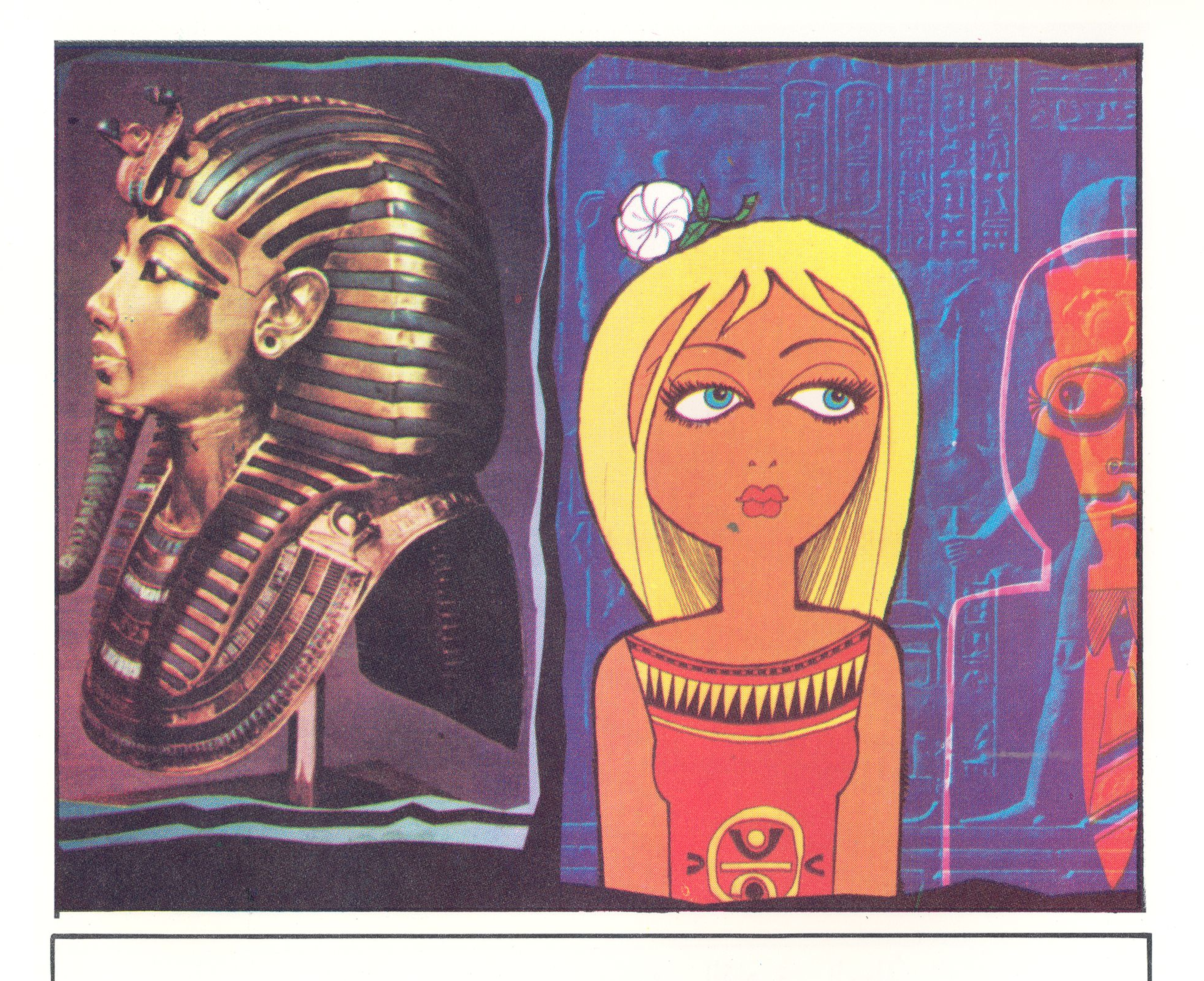
فإذا غادَرَ الإنسانُ مَحطَّةَ القِطارِ فإنَّهُ يُصْبحُ في «مَيْدانِ باب الحديد» وهو إحدى الساحاتِ العامَّةِ الكبيرةِ الكثيرةِ في القاهرة، وفي وَسَطِها تِمثالٌ ضخمٌ جداً لِرَمْسيس، أَحَدُ أبطالِ مصرَ القديمة.. علىٰ أنّ أكبرَ ساحةٍ عامةٍ عندَنا في القاهرةِ هي ساحةُ مَيْدانِ التحرير. وَيَنْدُرُ أن تخلوَ ساحةٌ من تمثالٍ لبطلٍ من أبطالِ أُمَّتِنا، مثل تمثالِ سَعْد زغلول وتمثال مُصطفىٰ كامل، وتمثال سُليمان الحلبيّ.. وسليمانُ الحلبي هو بطلٌ شعبيٌ من مدينةِ حَلَب، كان يعيشُ في القاهرة قبل حوالى ١٨٠ سنة، أي عندما كانت قواتُ غزوٍ فَرَنْسِيَّةٍ تحتلُّ مصرَ، فقام البطلُ سليمان الحلبي بقتلِ قائدِ أولئك الغُزاة لِطَرْدِهم من وطنِنا.





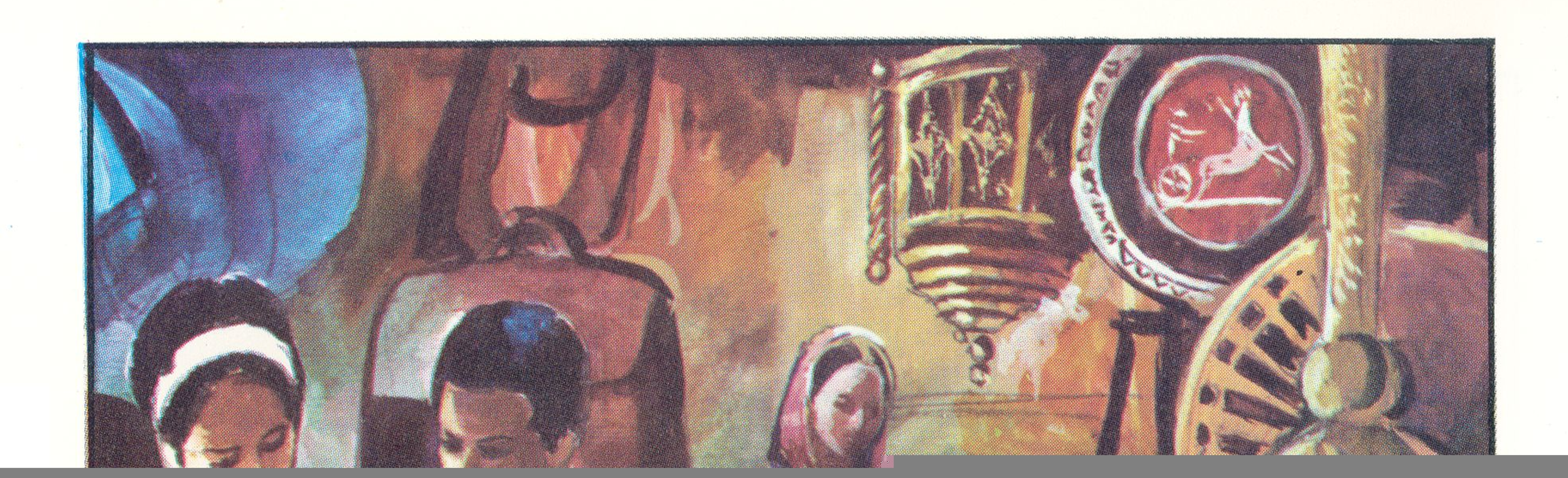
وإِلَيْكُمْ هذا الخَبَرَ الطَّريفَ: عندما يُريدُ أيٌّ مِنْ أبناءِ مُدُنِ القطرِ المصري أن يأتي إلى القاهرة فإِنَّهُ يقول: (أنا مُسافر إلىٰ مصر). وذلكَ لأنَّ الناسَ هُنا اعتادوا أنْ يُسَمُّوا مدينةَ القاهرةِ باسم: مصر. لذلك فإِنَّهُ عندما تأسَّسَتْ ضاحيةُ (مصر الجديدة) قَبْلَ حوالَى ستين سنة لم يُسَمُّوها باسم (القاهرة الجديدة) وإنّما قالوا: (مصر الجديدة). واليومَ أصْبَحَتْ هذه الضاحيةُ الكبيرةُ جُزءاً من مدينتِنا التي اتَّسَعَتْ كثيراً وأصْبَحَ لها ضَواحٍ جديدةٌ، كلُّ ضاحيةٍ أجملُ من الأُخرىٰ..

وفي ضاحيةِ الأهرامِ، حيثُ يحبُّ الناسُ النزهَةَ وقضاءَ أوقاتِ الرَّاحةِ هُناك، نَجِدُ إحدىٰ عجائبِ الدُّنيا في قديمِ الزمان. أَقصُدُ: أهرامَ الجيزةِ وتمثالَ أبي الهول الضَّخمَ المشهورَ.

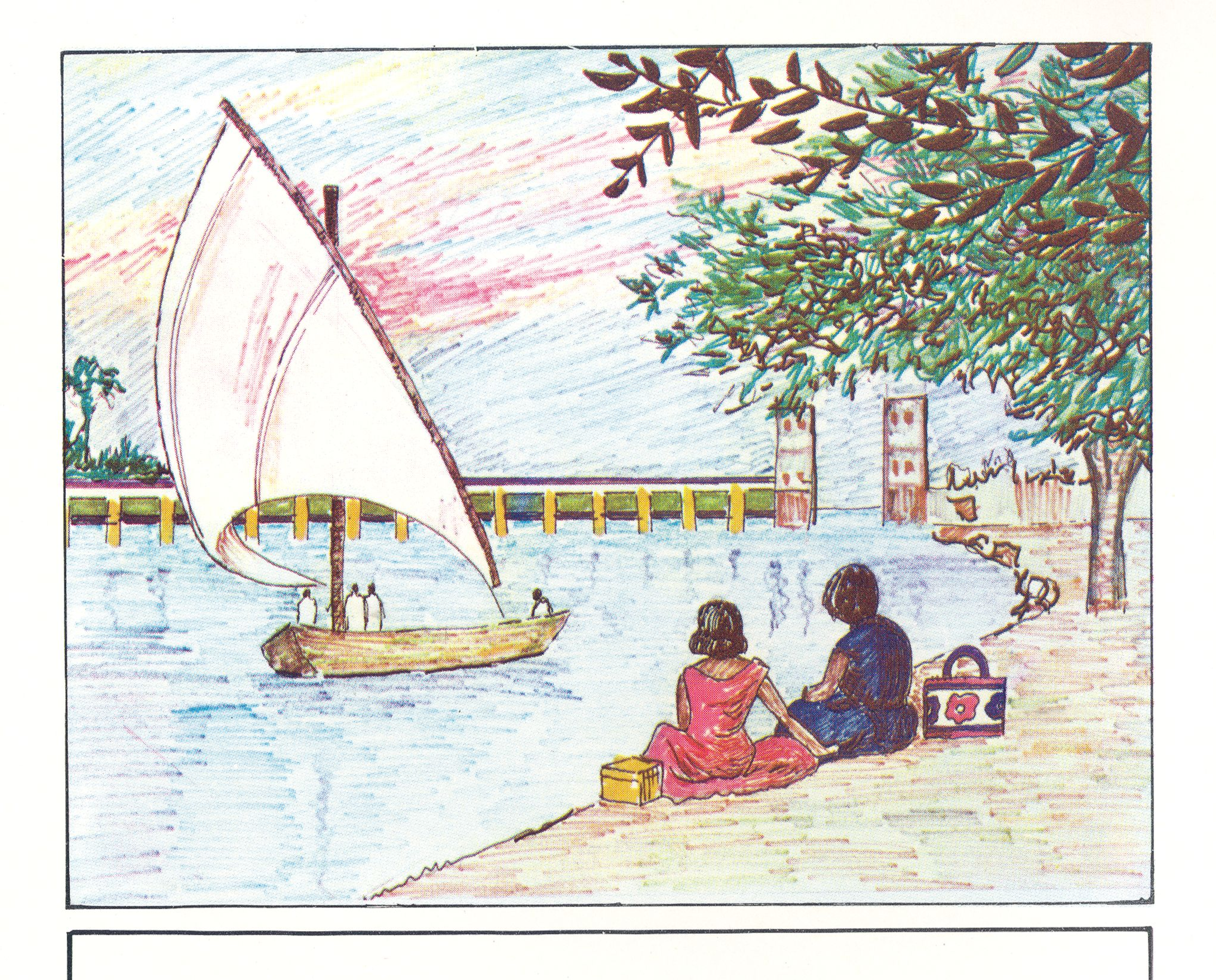


إذا زُرْتُم الهَرَمَ فإنَّكم ستلاحِظونَ وُجودَ عَدَدٍ كبيرٍ من السياح الذينَ يأتونَ إلى القاهرةِ من مُختَلَفِ أقطارِ العالمِ ليتأمَّلوا الآثارَ المصريةَ القديمةَ، وليزوروا متاحفَ القاهرة التي يَجِدُ الإنسانُ في مَعْروضاتِها الثمينةِ صُوَراً مُشْرِقَةً عن عَراقَةِ الحضارةِ في هذا الجُزءِ من وطنِنا العربي. وعندَنا في القاهرة عددٌ كبيرٌ من المتاحفِ الضخمةِ الشهيرةِ التي رُبَّما كانَ أَهَمَّها: (١) المُتحفُ المصريُّ الذي يَغُصُّ بالتحف الأثرية القديمةِ المتبقيةِ من حضارةِ وادي النيل التي تمتدُّ إلى أكثر من أربعةِ آلاف سنة. (٢) المتحفُ الإسلامي الذي نجدُ في معروضاته قصَّةَ الحضارة العربيَّةِ التي صنعتها أُمَّتُنا في تاريخها المجيد. على أنَّ القاهرةَ بِحَدِّ ذاتِها تُعَدُّ متحفاً كبيراً، بما فيها من شوارعَ قديمةٍ، وقصورٍ وَقِلاعٍ ومساجدَ وبناياتٍ أثريَّةٍ يُعَدُّ كلُّ منها نموذجاً لجمالِ فنِّ العَمارَةِ العربية.









كُنْتُ أُحِبُّ أنْ أُحَدِّثَكم عن مُنتزهِ القناطِرِ الخيريَّةِ الجميل، وعن قصَّةِ مِقياسِ نهر النيل الذي كانوا يَعْرِفونَ منه مقدارَ ارتفاعِ مياهِ النهرِ وقتَ الفَيَضان،

